

الاعتذار في شعر السُّجون الأندلسي

Pleading for Apology in the Prisons Poetry of Andalus

* د. سيد سيار على

** د. محمد ظاهر شاه

Abstract

Apology is a statement saying sorry for something that he has been done wrong or that causes a problem.

Prison literature refers to poetry and prose penned by poets or writers during their imprisonment to express their feelings and emotions. In such a literature, the author expatiates about the internal circumstances of prison thoroughly. It depicts author reminiscing about their beloved or expressing worries about their family. Apart from that, this literature also portrays author expressing about their innocence in relation to their imprisonment. It exhibits the author giving reasons to prove their innocence, generally known as a plea. Such explanations of innocence are aimed at begging one's pardon known as apology.

This article discusses apologies and plea made by Andalusian poets in their poetry while in prison. The horizons of intellectuality of such poets become evident in their poetry wherein they, along with acquitting themselves from allegation against them, plead for apology to the king or the commander. This literature also presents fashion of critical rhetoric.

Keywords: Andalusion prisons poetry, Pleading and Apologizing in poetry..

أدب السُّجون هو الأدب الذي نشأ خلف القضبان الحديدية، من الشعر و النثر، يعبر الشاعر فيه عن الآلام و الاحزان، و عن السلاسل و الأغلال، و الغيظ و الغضب، في صورة الغزل و المدح و الرثاء و الزهد و الوصف و الرسائل الشعرية و الثرية، و الغرض منه الاستعطاف و الاسترحام، الحنين و البكاء، ذكر الماضي و أيام الحرية، حب الأهل و الأولاد، و ذكر المحبوب و لوعة فراقه، حتى كل ما يشعر به الأديب و الكاتب و الشاعر في غياهب السُّجون و يكتب و ينشد في هيئة النثر أو الشعر فيقال لها أدب السُّجون.¹

معنى الاعتذار لغةً:

قال ابن منظور: العذر هو الحجة التي يُعْتَذِرُ بها و الخروج من الذنب. و عذّر في الأمر، أي قصّر بعد جهده. التعذير في الأمر، أي التقصير فيه، و هناك فرق بين كلمة "عذّر" و "عذّر" أمّا كلمة الأولى هي تدل على ثبوت العذر و أمّا "عذّر" هي كلمة غير دالة على العذر،² كما في القرآن الكريم:

" وَ جَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤَدِّنَ لَهُمْ³ أَي هُم الَّذِينَ لَا عَذْرَ لَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ. وَ "المُعَذَّرُونَ" بالتخفيف، أي هُم الَّذِينَ لَهُمْ عَذْرٌ. وَ مِنْهُ أَعَذَّرَ فُلَانٌ إِعْذَارًا، أَي كَثُرَ عَيْبُوهُ وَ ذَنْبُوهُ وَ صَارَ ذَا عَيْبٍ وَ فَسَادٍ. وَ يُقَالُ: أَعَذَّرَ فُلَانٌ مِنْ نَفْسِهِ أَي أَتَى مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ.⁴

* محاضر الدراسات الإسلامية بجامعة صوابي، صوابي من إقليم خيرينجتونخوا باكستان.

** الاستاد المساعد، قسم اللغة العربية، بجامعة پشاور

قال الزبيدي: العُذر، تحزى الإنسان ما يححو به ذنوبه، و منه أعذر أي قصّر و لم يُبالغ و هو يُرِي أَنَّهُ مبالغٌ، و أعذر فيه يعني جاءت بعد الكلمة "فيه" بمعنى بالغ و جدّ، كما يقال: بالغ الرجل فيه، أي إذا بلغ الرجل إلى أقصى الغاية.⁵

الاعتذار اصطلاحاً:

الاعتذار هو التغاضي عن الذنب مع انتحال الاعتذار و التبريرات، و يدفع الشاعر عن نفسه التُّهمة مبيّناً أن لا ذنب له فيها، و يبيّن ندمه على ما ارتكب من تصرّفٍ فعله سابقاً و يقَدِّم العذر بكلمات عدوية و بألفاظٍ كريمةٍ على مهارة التفنّن في الشعر من الفصاحة و البلاغة، و يكون الرجوع في قلب المعتذر من المعتذر إليه. قال المرتضي الزبيدي إنّ للاعتذار ثلاثة أضرِب، أمّا الأول هو أن تقول "لم أفعل الذنب و الخطأ قطُّ". و أمّا الضرب الثاني هو أن تقول "فعلتُ لأجل كذا" فيذكر ما يجرحه عن كونه مذنباً. و أمّا الأخير هو أن تقول "فعلتُ و لا أعودُ، و يقال له التَّوبة" فكل توبة عُذر، و ليس كلُّ عُذرٍ توبةً.⁶

قال الجرجاني: الاعتذار هو محو أثر الذنب.⁷

قال أحمد مختار البزرة: إنّ قصائد المدح التي يغلب عليها الاعتذار.... و أهم مزايا هذه القصائد أنّ الشاعر ينسي نفسه ما عدا الخوف و الرجاء⁸

قال واضح الصمد: العلاقة بالسلطة هي من أهم أعراض أدب السُّجون، و لكل شاعر موقف خاص من السلطة التي ألقت به في السِّجن، و تتضافر في بناء هذا الموقف عدّة مؤثرات.... و منها مستوى الذنب الذي أخذ به الشاعر، و تتفاعل تلك المؤثرات لدى الشعراء، فينتج عنها إما اعتذار إلى السلطان و التماس عفو كريم مهدداً له بالاستعطاف....⁹

أمّا الغرض الرئيسي من الاعتذار هو طلب العفو و يسعي إليه الشاعر هدفاً، لكنّ لا يُحصل هذا الغرض إلاّ بالمدح، كما نال الشعراء الجوائز و الأموال و العزّة و الكرامة بمدح الأمراء و الوزراء و السلاطين و الخلفاء. قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: لا تعاجل الذنب بالعقوبة، و اجعل بينهما للاعتذار طريقاً.¹⁰ و قال أيضاً: لو أنّ رجلاً شتمني في أذني هذه، و اعتذر ليّ في أذني الأخرى، لقبلتُ عُذره.¹¹ و قال أبو هلال العسكري: الاعتذار ذلّة، و لا بد منه، لأنّ الإصرار على الذنب، فيما بينك و بين خالقك هلكة، و فيما بينك و بين صديقك فرقة، و عند سائر الناس مثلبةٌ و هجئةٌ، فعليك به، إذا وقعت الذنب، و قارفت الجرم، و لا تستتكف من خضوعك و تذلللك فيه.¹²

أول من أدخل الاعتذار في الشعر:

و أول من أدخل الاعتذار في الشعر هو النابغة الذبياني، و هو الذي آجاد فيه ثم احتذى على مثاله و مذهبه الشعراء، و إنّ نشأة هذا الضرب كانت بسبب العلاقات التي أقامها النابغة ببلاطي الحيرة و الغساسنة، وقد تراوح أسلوبه في اعتذارياته جميعاً بين تعليل لسبب مدحه الغساسنة و مبالغة ذلك من تعريض بالوشاة و القيسم على براءته مما نُسب إليه.¹³

كما قال النابغة الذبياني في الاعتذار:

حلفتُ، فلم أترك لنفسك ربيّةً
ولن كنت قد بلغت عي وشايّةً
و ليس، وراء الله، للمرء مذهب
لميلغك الواشي أغش و أكذب¹⁴

قال كرم البستاني: كان في أثناء نزوله عند الغساسنة، يمدح النعمان و يعتذر إليه، مبرئاً نفسه مما رماه به أبناء عوف بن قريع، وهذه القصائد التي تسمى الاعتذاريات، و هي من أجمل شعر النابغة.¹⁵
قال أبو هلال العسكري: لم يُرَوْ عن أحد قبل النابغة الذبياني في الاعتذار شعر.¹⁶

شعراء الاعتذار في الأندلس:

قد أصيب بهذه المحنة السِّجن كثير من الشعراء في الأندلس و خاصة في عصر الملوك الطوائف، انتهت حياة بعض منهم في السِّجن كالوزير هاشم بن عبد العزيز (273هـ) و جعفر المصحفي (372هـ)، و عبد الملك بن إدريس الجزيري (394هـ) الذي قُتل في محبسه، أدخل عليه في مطبقه قومٌ من السودان فخنقوه، و أشيع موته و أخرج ميتاً بعد أيام، و أسلم إلى أهله و لا أثر به،¹⁷ و هكذا قتل ابن عمّار الأندلسي (477هـ) علي يد الملك المعتمد بن عباد، و هكذا قُتل الوزير الشاعر أبو جعفر بن عطية القضاعي (553هـ) و لسان الدين ابن الخطيب (776هـ)، و ماتوا منهم بموت طبيعي في زنازة السِّجن كعمد بن عباد (488هـ)، و قُطع اعضاء بعض من الشعراء السُّجناء في غيابهم السِّجن لقسوة الانتقام و لتعذيب شديد كعاصم التميمي العبادي (199هـ)، الذي سمل عينيه و قطع طرف لسانه.

مهما تكن من أمر يقتل الشعراء في غيابهم السُّجون أو قطع العضو أو القيد الطويل إلى مدّة حياة الشاعر أو الخروج منه بشفاعة غيره أو لبنة قلب الأمير بقصائد المدح التي اعتذر به الشاعر و طلب العفو و الرحم منه، فأطلق سراحه، لكنّ كثير من الشعراء السُّجناء أنشدوا القصائد وراء القضبان الحديدية في الاستعطاف و الاعتذار و فازوا منهم بميلان قلب الأمير إليه، و بعد سماعة قصيدة الاعتذار مال الأمير إلى اطلاق سراح الشاعر، و بعض منهم ما اعتذروا له قطّ، و ما وهنوا و ما استكانوا في غرفات الدامس و الزنانات المظلمات، كعمد بن عباد.

بعد امعان النظر وصل الباحث إلى أنّ ابن زيدون، وابن عمّار، و عبد الملك بن غصن الحجاري، و جعفر المصحفي، و ابن الحدّاد الأندلسي، و أبو الحسن البغدادي الفكيك، و أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد كانوا من الشعراء السُّجناء في الأندلس، الذين أنشدوا القصائد في غرفات السُّجون معتذرين لأمرهم ليستعطف عليهم ويسهل أمرهم و يطلق سراحهم.

الاعتذار في شعر السُّجون الأندلسي:

الاعتذار هو التغاضي عن الذنب و يدفع به الشاعر عن نفسه التُّهمة مبيناً أن لا ذنب له فيها، و بعد مطالعة التاريخ لإدب السُّجون في الأندلس نرى أنّ الشعراء السُّجناء ما تخلّوا في إنشاد الشعر خلف الأبواب السوداء استعطافاً و اعتذاراً، و نفوا الاتِّهام عن نفوسهم مما نُسب إليهم زوراً وَّ مُثَنّاً في حق الأمير بباعث الوشاية أو الحسد أو ما أشبه ذلك من الدسائس.

و قصائد الاعتذار تدور أكثر معانيها عادة على نفي الشاعر السِّجين عن نفسه ما زُمي عليه زوراً و كذباً، و حاول الشاعر إثبات براءته و استمالة قلب سجانها و أميره أو المعتذر إليه الذي قسا عليه قلبه، و في التعبير عن هذه المعاني تباينت أساليب الشعراء من حيث قوّة التأثير و الاقتناع بالبراءة، كما قال ابن زيدون¹⁸ معتذراً لأبي الحزم بن جهور:

ما للذُّنوب التي جاني كبائرها	غيري يحتمّني أوزارها وزري
من لم أزل من تأنيبه على ثقة	و لم أبت من تجنيبه على حذر
قد كنت أحسبني و التّجم في قرني	فقيم أصبحت منحنطاً إلى العفر؟ ¹⁹

قال الشاعر ما لمعيني وسندي (أبا الحزم بن جهور) يحتمّني أعباء الذنوب والأخطاء التي لم أرتكبتها بل اقترفتها غيري؟ و حوسبت و عوقبت أنا عليها، و أنا في غياب السِّجن.

و قال: برغم إعراض ممدوحي عيبي إلا أنني لم أزل على ثقة من ترفقه بي، و لم أبت على حذرٍ من تحنّيه. و كنتُ أحسبني أنّ النجم أفرنه و لي وصول إليه، فما لي أصبحت منحطاً إلى التراب؟
و قال أيضاً يعتذر عن خطيئته:

هيني جهلث فكان العلق سيئةً لا عُذَرَ منها سوى أبي من البشر
إنّ السيادة، بالإغضاء، لابسَةٌ بهاءها، و بهاء الحُسن في الخفر
لك الشفاعة، لا تُتني أعتنّها دُون القبول، بمقبولٍ من العُدُر²⁰

قال الشاعر " هيني " أي افترض أنني جهلث الأمور فحوّلت الغالي النفيس و الثمين بحساً، و قلبت الحسنة سيئةً، فلا عُذر لي في ذلك سوى أنني من البشر، أصيب و أخطئ، و الخطاء من الإنسان، و أنت بالإغضاء و كف النظر عن المساوي تبدو عليك السيادة لابسَة ثياب البهاء، فبهاء الحسن و سحر الجمال في غض البصر، و لك أمر الشفاعة فيّ، فلا تمل بأعتنها عني أبداً و اقبل عذري.

وردت كلمة " البهاء " في شطر الثاني من البيت الثاني مكررةً، بمدح بها الشاعر أميره أبا الحزم بن جهور، أنّ كف النظر عن السيئات هو من بهاء السيادة، و البهاء من الحُسن فإنّه من بجي الرجل²¹، و أما "بهاء الخفر" هي كثرة الحياء و الأمان و الذمّة²²، فيريد الشاعر أنّه انسان يصيب أحياناً في الأمر و يخطئ أحياناً، لكنّ الأمير أبي الحزم هو في غاية كف النظر عن سيئات الناس و يلبس ثياب الحياء عن عيوبات الرعيّة، فالشاعر يريد التأكيد فاتي بتكرار الكلمة و بعد هذا الأسلوب البلاغي أورد كلمة " الشفاعة" متصلاً لأنّ غرض التكرار في مدح الأمير هي طلب الشفاعة و الاستعطف بعد الاعتذار. و هكذا نجد الشاعر أنّه أورد كلمة " القبول" مرتين في شطر الثاني من البيت الأخير، فهذا التكرار أيضاً يدلُّ على اعتذار الشاعر بأنّه انسان خطيء، فقال لا تُمال أعتنّها في غير اتجاه قبول العذر.
و قال أيضاً في قصيدته الميمية يمثل هذا المعنى:

لم يرزل مغضياً على هفوه الجاني مصيحاً إلى اعتذار الكرم²³
مدح الشاعر ممدوحوه بأنّه حلیم، يغضُّ الطرف دائماً عن هفوة الجاني، و يصغى أبداً إلى اعتذار الكرم.
و قال أيضاً:

و مثلي قد تهمو به نشوة الصبا و مثلك من يعفو و ما لك من مثل²⁴
نرى أنّ أسلوب الخبر في شعر السُّجون لابن زيدون قد يتعدى أحياناً إلى معاني الاعتذار و الاستعطف، كما نجد في البيت، لأنّه لم يقصد أن يخبر بأنّه يقع في الهفوات و إنّما قصد الاعتذار لعلّ ابن جهور يعفو عنه و يأمر بإطلاق سراحه فهذا الخبر في البيت قُصد به الاعتذار و طلب العفو.

و من هذه المعاني ما جاء على لسان ابن عمّار الأندلسي²⁵ في اعتذاره للمعمد بن عباد حيث يقول:

حنانك في أخذني برأيك لا تُطع عداي، و لو أثنوا عليّ و أفصحوا
و ما ذا عسى الواشون أن يتزيدوا سوى أنّ ذنبي واضحٌ مُتصححٌ
نعم لي ذنبٌ غير أنّ لحلمكم صفاءً يرزلُ الذنب عنها فيسفح
أفلي بما بيني و بينك من رضاً له نحو روح الله بابٌ مفتوح
و عفّ على آثار جرم سلكته بهبة رُحى منك تمحو تصفح²⁶

إنَّ ابن عمَّار أرسل هذه القصيدة من السِّجن قصيدةً طويلةً، و استودعها كل قدراته الفنية و أفرغ في كلماتها و عباراتها كل عاطفته نحو المعتمد، و دافع عن نفسه في استماتة محاولاً تفنيد الوشائيات، و ردَّ كيد الساعين عليه في نخورهم هؤلاء الذين يحاولون أن يُورطوه في المشقة و البلاء و سعوا في اشتعال النَّار بينه و بين المعتمد. قد ضمَّن الشاعر البيت الثاني بشعر المجنون الذي أنشد في ليلتي:

و ما ذا عسى الواشون أن يتحدثوا
سوى أن يقولوا إني لك عاشق²⁷

قال ابن بسام و إن كان المعنى مختلفاً فحذو اللفظ واحد²⁸.

لما وصلت هذه القصيدة إلى المعتمد جعل الحاضرون من أعداء ابن عمَّار ينتقدونه، و يعيبون شعره و يقولون: أي معنى أراد؟ فقال المعتمد: مهما سلبه الله من المروءة و الوفاء، فلم يسلبه الشعر، إنما قلب بيت أبي ذؤيب الهذلي:

و إذ المنيّة أنشبت أظفارها
ألفيت كلّ تميميّة لا تنفع²⁹

قد كان المعتمد منصفاً لابن عمَّار، و عارفاً بجودة شعره بصرف النظر عن خيانة التي أحدثت الخلاف بينهما.³⁰

يخاطب ابن عمار المعتمد بأسلوب الأمر، يتخذ منحى غير الذي يخاطب فيه الآخرين، إذ يُحمّل فعل الأمر ما يمكن أن يحمله من دلالات، تقديراً لمكانة المعتمد أولاً ثمَّ لظروف الشاعر ثانياً، لتعبّر عن مشاعره أصدق تعبير ليصل إلى غايته بأسلوب بليغ.

يستهلُّ ابن عمَّار البيت الأوّل بالمصدر النائب عن فعل الأمر "حنانك" أي تحمّلت عليّ مرةً بعد أخرى و حناناً بعد حنانٍ، إلحاحاً منه في التوسل إلى المعتمد و استعطافه، ثمَّ في البيت الثاني يرتكب الجرم و يعترفه و يعتذر مع أنّه يرمي التّبل إلى الواشين و الحاسدين، و في البيت الثالث بعد الاعتذار يستعطف و يسترحم و بمدح ممدوحه بصفة الحلم و عفو الذنوب، ثمَّ في البيت الرابع يستعطفه متوسلاً "أقلمي" و في البيت الأخير يكرر طلب العفو و العطف بمدلول آخر "عفّ" فأسلوب الأمر في الأبيات الثلاثة يحمل شحنات دلالية لتعكس الواقع المرير الذي يعيشه الشاعر، فهو يشكو فيلجّ في طلب الرحمة "حنانك" و يطلب النجدة "أقلمي" ثمَّ يطلب العفو الشامل ممّا ارتكبه من ذنب "عفّ"، و مع أنّه يعترف جرمه في البيت الثاني و الثالث معتذراً.

اعتمد ابن عمَّار على التكرار اللفظي في شعره السُّجون الاعتذاري، كما نجد كلمة "الذنب" وردت مرتين في البيت الثالث و هكذا في قصيدته اليبائية:

هبك احتجبت لوجه عذر بيّن
بذل الشفاعة أيّ عذر فيه؟³¹

نجد هناك تكرار كلمة "عذر" في شطر الأوّل و الثاني، فسلك الشاعر أسلوب التكرار لدلالة على أنّه يُسخر إيقاع التكرار بأتماطه المختلفة في خدمة فنّه، و يوظّفه في التعبير عمّا يريد نقله و إيحاءه، أو إثارة لتقوية المعنى و تأييد مقصده. و هذا هو الفن البلاغي الذي مال قلب الأمير بعد سماعه القصيدة إلى إطلاق سراحه و خروجه من الزنزانة المظلمة لكنّ بعد يومٍ قسا قلب الأمير لما سمع أشعاره الهجائية في المعتمد و زوجته إعتقاد الرُّميكية، و هذه هي الأشعار الهجائية:

ألا حيّ بالغرب حياً حالاً
أناحوا جمالاً و حازوا جمالاً

ليستل عن ساكنيها الرّمام
و لم تر للنّار فيها اشتعالاً

تخيّرهما من بنات الهجان
رميكية ما تُساوي عقلاً³²

في البيت الثاني كناية عن البخل، يعني أنّ صاحب البيت لا يطبخ طعاماً للضيوف إلا نادراً، فنسب البخل إلى المعتمد بن عباد و عياله و في البيت الثالث هجا حبيبة الملك و زوجته إعتقاد الرميكية. فدخل عليه المعتمد و ظنَّ ابن عمَّار

أته جاء ليفكه من قيوده و لكته عاجله بضربة من طبرزان كان في يده، في رأسه ضربة فلقت هامته فلقطين ففضى عليه و أمر به فدفن بقيوده كما هو على حالته التي قتل عليها تحت باب من أبواب القصر سنة 477هـ و بذلك كانت نهاية ابن عمّار التي خطّها لنفسه بيديه جزاء طعمه و طموحه الزائد عن الحد.³³

و أرسل الشاعر من غرفة الاعتقال و زنازة السِّجن مستعظفاً للمعتمد و معتذراً له، فقال:

نفسي تحن إلى فداء	تفديك نفسي من شراء
فاسبق بنفسك وعدهم	مسترخصاً لي بالغلاء
ثم امضي فيّ على اختيارك	من فناءٍ أو بقاءٍ
و الله ما أدري إذا	قالوا: غداً يوم اللقاء ³⁴

كان ابن عمّار في سجن شقورة و أرسل إلى الأمير هذه القصيدة يستعطفه بها و يلح في طلب عفوه عنه، و نسيان إساءته، و يسلم أمره إليه يتصرف فيه كيف شاء، و يعتذر له و يعترف بأنّه من المخطئين و المذنبين.

و من هذه المعاني أيضاً ما استعطف و اعتذر به عبد الملك بن غصن الحجاري³⁵ المأمون بن ذي النون³⁶:

فديتُك هل لي منك رُحمي لعليّ	أفارتُ قبراً في الحياة فأنشُر
و ليس عقابُ المذنبين بمنكرٍ	ولكن دوام السُّخط و العتب يُنكر
و من عجبٍ قولُ العداة مُثقل	و مثلي في إلحاحه الدهر يُعدّر ³⁷

يبدو لنا من أبيات الشاعر السِّجين أنّه لما دهته الحادثات و لم يجد ملجأً يحميه منها و لا سنداً يستند إليها، فأعتذر و استعطف و استرحم بشعره، و قال إنّ العقاب و التكليف ليس بمنكرٍ على المذنبين لكن هذا من أمرٍ عجيب إذا كان العذاب و النكبة تدوم، و تمّر دائماً على المخطئين.

أمّا من ناحية الألفاظ و البلاغة، فقد حرص الشاعر على الدقّة التامة في اختيار الألفاظ المعبّرة الموحية بمعانيه التي يقصد إليها و تأمل عنصر الاستعطف و الاسترحام و الاعتذار بشعره.

نجد أنّ الشاعر يحسُّ التكليف و الألم في غياب السِّجن و يعبر عنها بشعره و يريد إرسال ذلك الاحساس إلى الأمير بكلمات "العقاب، و السُّخط، و العتاب"، و يقصد الشاعر بهذه الترادف المعنوي الاعتذار و الاستعطف.

و في مثل هذه المعاني قال الشاعر جعفر المصحفي³⁸:

هبتني أسأت فأين العفو و الكرم	إذ قادي نوحك الإذعان و الندم
يا خيرَ من مُدّت الأيدي إليه أما	ترثي لشيخ نعاؤ عندك القلم
بالغت في السُّخط فاصفح صفح مُقتدر	إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا ³⁹

إنّ الشاعر جعفر المصحفي أرسل قصيدة إلى ابن أبي عامر يستعطفه و يسأله التواضع عن زلّته إن كانت له زلّة، و عن إساءته إن كانت هناك إساءة، و نرى أنّه بالغ في الاعتذار و التذللّ و الاستعطف كما قال:

عفا الله عنك! ألا رحمة	تجود بعفوك إن أبعدا؟
لئن جلّ ذنبي، ولم أعتمده	فأنت أجلّ و أعلى يدا
ألم تر عبداً عدا طوره	ومولئ عفا ورشيداً هدى؟ ⁴⁰

نرى الشاعر أنّه يعتذر و يضع نفسه في مقام العبودية لابن أبي عامر، لأنّه في كربٍ عظيمٍ، و يريد الخلاص و الخروج، و هو كان يرسل من سجن المطبق إلى الأمير قطعاً شعرية في مختلف المعاني، أحياناً وصف حاله في غياب السِّجن و أحياناً يبرئ نفسه عن الذنب و ينشد أشعار الاعتذار و الاستعطف.

و هكذا نجد الشاعر ابن الحداد⁴¹ الأندلسي هجا المعتصم بن صمادح و قيل أنه قتل رجلاً، ففرَّ عن بلده إلى مرسية، فقبض على أخيه و سُجن انتقاماً من ابن الحداد، فبلغه خبير أخيه، فقدم على خروجه و تركه أخاه يواجه الكرب و المحنة، فأنشد قصيدةً يعتذر عن خروجه من المربة إلى مرسية،⁴² فقال:

الدهر لا ينفك عن حدثانه و المرء مُنقارٌ لحكم زمانه
فدع الزمان فإنه لم يعتمد بجلاله أحداً و لا بهوانه
كالمرن لم يخص بنافع صوبه أفقاً ولم يختار أذى طوفانه⁴³

لما بلغت هذه القطعة الشعرية إلى المعتصم فقال: شعره أعقل منه،⁴⁴ صدق فإنه لا يتهيأ له صلاح عيش إلا بأخيه، و هو منه بمنزلة السنن من الرمح، ثم أمر بإطلاق سراحه.

و قال أبو الحسن البغدادي الفكيك⁴⁵ في الاعتذار:

أيا ابن عباد الملك الذي يده من فيضها الرزق بين الخلق مقسوم
و كنت أحسد إقما كنت أنشده فاليوم ها أنا بين الناس مرحوم
فمن رأى شاعراً في السجن مطرحاً في ظلمة و هو بالبهتان مظلوم⁴⁶

إن الشاعر الفكيك كان متهماً في دينه بالإلحاد و الزندقة، و عُرف بذلك و اشتهر، فرفع الخبر و بلغ إلى المعتمد بن عباد فحبسه واعتقله في غياهب السجن، فأخذ يعتذر إليه ويرسل إليه القصائد من الزنانة المظلمة، ليطلق سراحه ويعفو عنه. أقول في تحقيق المقام أن الشاعر يبالغ في مدح المعتمد بن عباد لأته وصفه بتقسيم الرزق بين العباد، و أورد صيغة النداء ينادي به المعتمد لقوة التأثير في طلب العفو و الغفران و يعتذر إليه و يحاول أن يبرأ عن نفسه تهمة الزندقة و الإلحاد، فخطب المعتمد و بين أنه مظلوم معصوم، كما قال:

ناديتُ حلمك و الأقدار حائمةً كصاحب الحوت نادى و هو مكظوم⁴⁷

شبه الشاعر نفسه بصاحب الحوت، و هو سيدنا يونس عليه السلام، الذي التقمه الحوت، إذ نادى ربه في بطن الحوت، فأجاب ربه بأحسن الإجابة و القبول، وسمع نداءه وأخرجه من بطن السمك بعد أربعين يوم و ليلة، فاستمد الشاعر به و استشهد واقتبس من آية القرآن الكريم و هي " فاصبر لحكم ربك و لا تكن كصاحب الحوت إذ نادى و هو مكظوم"⁴⁸ نلاحظ الأسلوب البلاغي الإنشائي في شعره " أيا ابن عباد الملك" و أما أدب السُّجون لا تخلو قصيدة من صيغ النداء و الاستفهام البلاغي فهذا يدل على تجليب الانتباه و لفت الاهتمام إلى حال المنادى، و ما هي في نداء الشاعر هنا إلا الاعتذار و الاستعطاف و الاسترحام.

قال الشاعر الفكيك " فمن رأى شاعراً في السجن مطرحاً" و في مثل هذا المعنى قال الشاعر السَّجين ابن زيدون وراء القضبان الحديدية:

و بقاء الحسام في الجفن يثني منه بعد المضاء و التصميم⁴⁹

و كان أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد من الشعراء السُّجناء في الأندلس، و هو كاتب لعثمان بن عبد المؤمن، ملك غرناطة، و وزيراً له، كان يحبُّ الشاعرة حفصة بنت الحاج الركونية لكنَّ تولَّع بها أيضاً عثمان بن عبد المؤمن، فعزله من الوزارة في أول الأمر و بعد ذلك ألقاه في غياهب السجن و أخيراً قتله فيه.⁵⁰

و هذا من أجل التنافس في ما بين أبو جعفر أحمد ابن سعيد و ملك غرناطة عثمان بن عبد المؤمن تنافساً شديداً كما نجد مثل هذا التنافس في ما بين ابن زيدون و ابن عبدوس، و كانا يجتبان الولادة بنت المستكفي، حتى طال الأمر و اشتعل بينهما نار الإنتقام، و قصتهما مشهورة في الكتب الأدب العربي الأندلسي.

إنَّ الشاعر البتّيجين أبو جعفر بن عبد الملك بن سعيد أرسل قصيدةً من غياهب البتّيجن، أحسنَ فيها ما شاء أن يُحسن، يستعطفُ بها عثمان بن عبد المؤمن و يعتذر إليه، و يؤكِّدُ له أنَّه لم يغدرُ به، كما قال:

تركتُكم لا كارهاً في جنابكم
و لكن أبي ردّي إلى بايكم دهري
و ما باختيار فارق الخلد آدمُ
و ما عن مُراد لاذ أتوب بالصبر
و إنَّك إن فكَّرتَ فيما أتيتُه
تبيَّنتَ أنَّ التَّرك لم يكُ عن غدْرٍ⁵¹

أرسل الشاعر هذه الاعتذارات اللطيفة و القصائد الجميلة، و هو يأمل أن يعذره ابن عبد المؤمن و يعفو عنه، ويُقدِّر زلتَه، لكنَّ المنية بانتظار له، فقتل و لم تُقبل منه شيءٌ.

إنَّ قصيدة الشاعر البتّيجين مشتملة على أمرين، في أول الأمر هو بمدح ابن عبد المؤمن، و يذكر من إنعاماته و إحساناته و قرباته، ثمَّ انتقل إلى الأمر الثاني المهم و المطلوب وهو اعتراف الذنوب و الأخطاء بعد نفي جرم الخيانة و الغدر عن نفسه، لكن ابن عبد المؤمن، ملك غرناطة، صاحب العزة و الزمام، والعظمة و الجلال، ما مال إليه و أقر بذنبه عن الاعتذار.

كما قال أبو جعفر في المدح و الاعتذار مع أنَّه يبرئ نفسه عن الخيانة و الغدر:

و إنِّي لمئن بالذي نلتُ منك
مُقيم على ما تعلمون من البرِّ
و إن خُنتُكم يوماً فخاني المني
و ساء لديكم بعد إحماده ذكري
على أيِّ أقررتُ أيِّ مُذنبٍ
وذو المجد من يُعني المقرَّ عن العذرِ⁵²

نرى أنَّه يعتذر في البيت الأخير و أورد كلمة "الإقرار" مرتين، و يفيد هذا التكرار في الاستعطف و الاعتذار.

الملخص:

استخلصت البحث على أن الاعتذار هو التغاضي عن الذنب و يبرئ الشاعر نفسه عن التُّهمة و الذنب بشعره المدحية و يقرن هذا النوع أي المدح بالاستعطف و الاعتذار، لأنَّه لا ما يريد الشاعر إلا طلب العفو و الاسترحام و هو يمكن بمدح المعتذر إليه، و أحياناً يعترف الشاعر بذنبه الذي ارتكبه و أحياناً يحمل خطأ الغير على رأسه، و يعتذر بعد ذلك ليطلق سراحه و يسهل أمره.

و نرى أنَّ الشعراء السُّجناء من الأندلس أنشدوا القصائد في زنانات الدامس و غياهب السُّجون استعطافاً و اعتذاراً، و دفعوا الاتِّهام عن نفوسهم مما نُسب إليهم بُهتاناً في حق الأمير بباعث الوشاية.

وقصائد الاعتذار تدور أكثر معانيها عادة على براءة الشاعر عن الذنب و يحاول إثبات براءته و استمالة قلب المعتذر إليه الذي ألقاه في غياهب البتّيجن، وفي التعبير عن هذه المعاني تباينت أساليب الشعراء من حيث قوَّة التأثير و الاقتناع بالبراءة.

و نجد أنَّ الشعراء السُّجناء في الأندلس و إن كانوا في الكربات و الهموم و الآلام و التكليف و النكبات لكن شعرهم ارتقى إلى قمة عالية، و نضجوا ألسنتهم و أقلامهم عندما لحقوا بالحياة المريرة و حصلوا تجارب السلاسل و الأغلال.

الهوامش والمصادر:

¹ - البزرة، أحمد مختار. الأسر و البتّيجن في شعر العرب. ط1: 1985م، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ص 402

² - ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب. دار صادر بيروت، ص 4 / 545

³ - سورة توبة 9: 90

- 4 - لسان العرب. ص 4/ 549
- 5 - الزبيدي، محمد مرتضى. تاج العروس. ط: 1965م، التراث العربي، الكويت، ص 12/ 540
- 6 - نفس المصدر. ص 12/ 541
- 7 - الجرجاني، علي بن محمد. معجم التعريفات. دارُ الفضيلة القاهرة، ص 29
- 8 - الأُسر و البَيِّن في شعر العرب. ص 521
- 9 - واضح الصمد. السُّجون و أثرها في الأدب العربية. ط: 1995م، مجد مؤسسة الجامعة للدراسات و النشر، ص 229
- 10 - النويري، أحمد بن عبد الوهاب. نَهاية الأرب في فنون الأدب. دار الكتب العلمية بيروت، ص 3/ 241
- 11 - المقدسي، ابن مفلح عبدالله محمد. الأدب الشرعيَّة. ط: 3: 1999م، مؤسسة الرسالة بيروت، ص 1/ 319
- 12 - نَهاية الأرب في فنون الأدب. ص 3/ 242
- 13 - حمد و طماس. مقدمة ديوان نابغة الذبياني. ط: 2: 2005م، دار المعرفة بيروت، ص 8
- 14 - نابغة الذبياني، زياد بن معاوية. ديوان نابغة الذبياني. ط: 1963م، دار صادر بيروت، ص 17
- 15 - كرم البستاني. مقدمة ديوان نابغة الذبياني. ط: 1963م، دار صادر بيروت، ص 7
- 16 - نَهاية الأرب في فنون الأدب. ص 3/ 243
- 17 - ابن بسام، علي بن بسام. الذخيرة. ط 1: 1998م، دار الكتب العلمية، بيروت، 4/ 29، الفتح بن خاقان. المطمح الأنفس. ط: 1983م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 177
- 18 - ابن زيدون: هو أحمد بن زيدون من شعراء الأندلس، فلما تسلّم ابن جهور الحكم استقدم الشاعر و أوكل إليه النظر في أهل الذمّة و جعله سفيراً لدى بعض ملوك الطوائف، و لقبه بذي الوزارتين. قد أحبّ ابن زيدون و الوزير ابن عبدوس، وُلّادة بنت المستكفي، فأرسل إليه رسالةً هزلية على لسان وُلّادة، فاشتد العداوة بين الوزيرين العاشقين، استطاع ابن عبدوس مع أصدقائه أن يوقع بين ابن زيدون و ابن جهور الذي اتهم الشاعر باختلاس رجل ذمّي و بالخيانة، فسجنه خمس مائة أيام.
- 19 - ابن زيدون، أحمد بن زيدون. ديوان ابن زيدون. ط: 2004م، ص 108
- 20 - نفس المصدر. ص 111
- 21 - لسان العرب. ص 1/ 36
- 22 - تاج العروس. ص 11/ 205
- 23 - ديوان ابن زيدون. ص 282
- 24 - نفس المصدر. ص 242
- 25 - ابن عتّار هو أبو بكر بن عمار بن الحسين ولد في قرية " شَنبوس " من أعمال مدينة شلب، سنة 1031م، كان من عائلة فقيرة متواضعة، وصل بشعره إلى المعتمد، مدحه و وصفه خصائله لكنّ بعد ذلك وقع التمزق و النزاع في ما بين المادح و الممدوح، فسجنه المعتمد و قتله في محبسه بطبرزان. انظر: ابن الأبار، محمد بن عبد الله. الحُلّة السرياء. ط 1: 1985م، دار المعارف بمصر، ص 2/ 154
- 26 - ابن بسام، علي بن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ط: 1998م، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 2/ 252
- 27 - نفس المصدر. ص 2/ 252
- 28 - نفس المصدر. ص 2/ 252
- 29 - الهذلي، أبو ذؤيب خويلد بن خالد. ديوان الهذليين، شعر أبي ذؤيب. ط: 1965م، دار القومية للطباعة والنشر، قاهره، ص 3
- 30 - الذخيرة. ص 2/ 253
- 31 - نفس المصدر. ص 2/ 252
- 32 - نفس المصدر. ص 2/ 255

- 33- نفس المصدر. ص 2/ 252
- 34- الذخيرة. ص 2/ 251
- 35- أبو مروان عبد الملك بن غصن الحجاريّ كان من أهل وادي الحجارة تلقى علومه بالمشرق، ثم عاد إلى بلده، كان ابن غصن الحجاريّ أحد الأعلام في الآداب و التاريخ و التأليف و مع ذلك كان فقيهاً أديباً شاعراً صاحب منظوم و منثور، لما أراد المأمون بن ذي النون الاستيلاء على وادي الحجارة فهجاه عبد الملك بن غصن فغضب عليه المأمون بن ذي النون غضباً شديداً، و ترّص به الدوائر حتّى نكبه، و سجنه. انظر: المقرئ، أحمد بن محمد. نفع الطيب. ط: 1988م، دار صادر بيروت، ص 3/ 363
- 36- هو يحيى بن ذي النون، ملك طليطلة، استولى على قرطبة و قتل ابناً للمعتمد فيها، ثم استولى على بلنسية، احتلّ الإسبان بلاده و اشترطوا عليه أن يظاهرهم على أهل بلنسية مقابل انسحابهم من طليطلة، فقبل شرطهم. انظر: نفع الطيب، 4/ 440
- 37- نفع الطيب. ص 3/ 424
- 38- هو أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي، كان وزيراً في عهد الخليفة الحكم بن عبدالرحمن، و كان له يدٌ في تأليف حكومته و تشكيكه حتّى يرفع الناس إليه الشكاوى ليفصل فيها، و هو يتولى ذلك بنفسه، و لما تولى ابن أبي عامر عزل المصحفي عن وظيفة الحجابة لكنّ بعد ذلك أُلقي في غياهب السّجن، و عذّبه عذاباً شديداً، و اعتقله في السلاسل و الأغلال، و لم يُطلق سراحه حتّى مات في السّجن. انظر: ابن خاقان، محمد بن عبيد. مطمح الأنفس. ط 1: 1983م، مؤسسة الرسالة بيروت، ص 156
- 39- الحلة السيرة. 1/ 265
- 40- مطمح الأنفس. ص 159
- 41- هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد الأندلسي، عاش في مدينة المرية و تعلم الفلسفة، و الرياضيات و الفلكيات و نبغ في الشعر و الأدب و مع أنّه كان يحفظ أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم و يهتمّ بالتاريخ، وصل إلى بلاط المعتصم بن صمادح و مدحه بمدح كريم، لكنّ بعد مدّة حدثت الجفوة بينه و بين المعتصم، ففرّ من خوف انتقامه من المرية إلى مرسية. انظر: الذخيرة. ص 2/ 247
- 42- نفع الطيب. ص 3/ 504
- 43- ابن الحداد، محمد بن أحمد. ديوان ابن الحداد الأندلسي. ط: 1990م، دار الكتب العلمية بيروت، ص 301
- 44- الحلة السيرة. 2/ 167
- 45- هو أبو الحسن البغدادي الفكيك كان من الشعراء الذين وفدوا من الشرق إلى الأندلس، كان عذوب اللسان، قصير القامة و بديهة القول و الجواب، وصل إلى بلاط المعتمد و عاش تحت ظلّه، فمدحه بمدح كريم. انظر: الذخيرة. ص 4/ 224
- 46- الذخيرة. ص 4/ 224
- 47- نفس المصدر. ص 4/ 224
- 48- سورة القلم 68: 48
- 49- ديوان ابن زيدون. ص 281
- 50- نفع الطيب. ص 4/ 205
- 51- نفس المصدر. ص 4/ 185
- 52- نفس المصدر. ص 4/ 185